

## الفصل الثالث

### العشيرة والقبيلة

#### THE CLAN AND THE TRIBE

( ١ )

كما استعمل العرب كلمة الرهط أو الاسرة أو الفصيلة للدلالة على أصغر وحدة اجتماعية في حياتهم كذلك استعملوا كلمة العشيرة وما في حكمها كالفتح والبطن والعمارة للدلالة على نوع آخر من نظمهم الاجتماعية هو نظام العشيرة والعشيرة هي أصغر وحدة سياسية اجتماعية. وما الأفخاذ والبطون والعمائر إلا مجموعة من العشائر لم تصل بعد إلى مرتبة القبيلة. والحق الفرق بين هذه الأقسام وبين القبيلة أو الشعب إلا من حيث الحجم ودرجة البعد من الأصل المشترك<sup>(١)</sup> وكما تعمقنا في دراسة الحياة الاجتماعية عند الساميين القدماء كما اتضح لنا أن محور هذه الحياة في أقدم مراحلها كان يدور حول العشيرة لا حول القبيلة إذ النظام القبلي لم يظهر إلا متأخراً في حياة الساميين<sup>(٢)</sup> وذلك عندما اضطرت العشائر إلى أن تزدلف بعضها إلى بعض لضرورة حربية أو لأغراض اقتصادية. وقد عرف العرب العشيرة فقالوا « هم الذين يتماقلون إلى أربعة آباء »<sup>(٣)</sup> وشبهوها بأنها بمنزلة الساقين من الجسد اللتين يعتمد عليهما دون الأفخاذ.

Smith, Kinship, p. 5.

(١)

Lods, Israel, p. 244.

(٢)

(٣) نهاية الأردب ج ٢ ص ١٦١

ومن ثم نرى أن العرب كانوا متنبهين إلى أن الافخاذ وما فوقها وإن كانت أكبر من العشيرة عدداً وأعظم حجماً فهي أدنى منها شأنًا وأقل خطراً، إذ كانت العشيرة هي التي يُرجع إليها في كل أمر جليل. ومن ثم قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وما ذلك إلا لأن العشيرة هي أهم جماعة سياسية وأقدمها في حياة الساميين ، بل وبين الجماعات البدائية . فقد أظهر Davy أن أول جماعة تقابلها في الجمعيات البدائية هي العشيرة وأن وظيفتها سياسية ومدنية وإن كانت ذات طبيعة شبه دينية<sup>(١)</sup>؛ وقد ظلت كذلك بعد ظهور النظام القبلي وظلت محتفظة بذاتيتها وأهميتها ضمن النظام القبلي حتى أننا لا نستطيع إلى الآن أن نحدد بالضبط ماهية العلاقة بين شيخ العشيرة وشيخ القبيلة .

وكثيراً ما كان العرب يستعملون كلمة الحى لمعنى العشيرة وكذلك فعل العبرانيون فقد كانوا يستعملون للدلالة على العشيرة كلفى « مشفحة » و « حى » وأحياناً « عم »<sup>(٢)</sup>.

وقد أظهرت البحوث الحديثة أن العشيرة قد نمت من الأسرة القديمة بعدد من الطرق والأساليب التي أدت إلى تقسيم خاص وإلى عزلة جانبية<sup>(٣)</sup> وسرعان ما أصبحت حياة الفرد السامى خاضعة للعشيرة ولم تعد الأسرة على أهميتها تساهم في الحياة الاجتماعية إلا بقدر يسير زادت أهميته بزيادة نفوذ العشيرة<sup>(٤)</sup>

وقد عرف علماء الاجتماع العشيرة بأنها « قسم — خارجى الزواج — من قبيلة يمت بعض أعضائها إلى بعض بروابط مشتركة كاعتقادهم فى التحدر من أصل

(١) Moret and Davy, From Tribe to Empire, p. 12.

(٢) سفر صموئيل الأول اصحاح ١٨ آية ١٨ وسفر الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ١٣ .

(٣) Lowie, p. 157.

(٤) E. Day, The Social Life of the Hebrews, p. 24

واحدة مشترك أو أنهم يمتون إلى طوطمية مشتركة أو يقطنون أقليمياً مشتركاً»<sup>(١)</sup> ويرى بعض العلماء أن في هذا التعريف شيئاً من الإبهام ويبدو أن ذلك قد نشأ من استعمال كلمة Clan التي اشتقها العلماء الأنجليز من النظام الاجتماعي الموجود في اسكوتلندة وهو نظام يقرب من نظام القبيلة<sup>(٢)</sup>. ومن أجل هذا اقترح السير جيمس فريزر Sir James Frazer استعمال كلمة Kin بدلا من Clan فهو كلما تحدث عن العشيرة الطوطمية استعمل totem-kin أما العلماء الأمريكان فقد استعملوا كلمة Gens للدلالة على عشيرة الأبوة أي التي يكون النسب فيها إلى الأب واستعملوا كلمة clan للدلالة على العشيرة التي يكون النسب فيها إلى الأم. وقد اقترح رفرز Rivers كلمة sept للدلالة على العشيرة ومع هذا فقد آثر أن يتبع العرف المصطلح عليه ويستعمل كلمة Clan أما لوي Lowie فيستعمل كلمة Sib بدلا من Clan<sup>(٣)</sup>.

وقد اخترت هنا كلمة «العشيرة» للدلالة على المعنى المقصود من كلمة Clan عند علماء الاجتماع الأنجليز والفرنسيين

(١) Anthropological Notes and Queries; The Handbook of Fol-

klore, p. 295.

Rivers, p. 20.

(٢)

Lowie, p. 105.

(٣)

(٢)

## أنواع العشيرة

والعشيرة أنواع أهمها : —

أولا — العشيرة الطوطمية Totemic Clan وهي التي يعتد أعضاءها أنهم يمتون بصله النسب إلى نوع من الحيوان أو النبات أو الجواد يسمى « طوطم » Totem والطوطم الحيوانى أعظمها شيوعا . وتختلف طبيعة العلاقة إلى الطوطم باختلاف الأماكن ففي بعض جهات ميلانيزيا يعتد أعضاء العشيرة أنهم متحدرون من الطوطم نفسه . وفي بعض الجهات الأخرى يظن أعضاء العشيرة أنهم متحدرون من شخص — رجلا كان أو امرأة — له علاقة من بعض الوجوه بالحيوان أو النبات أو الجواد الذي يكون الطوطم . وقد عرف دوركيم Dorkheim العشيرة الطوطمية بأنها « مجموعة من الأفراد يعتبرون أنفسهم مشتركين في القرابة ولكنهم يميزون هذه القرابة بعلامة خاصة وهي أنهم جميعا يحملون اسم طوطم واحد . وهذا الطوطم هو كائن حي أو غير حي ولكننه في الغالب حيوان أو نبات تعتقد الجماعة أنها متحدرة منه وأنه شعارها وبه تسمى . فان كان الطوطم ذئبا مثلا فجميع أعضاء العشيرة يعتقدون أنهم متحدرون من الذئب وأن دمه يجري في عروقهم . وهذا هو السبب في أنهم يطلقون على أنفسهم « بنى ذئاب » أو « بنى دياب » (١)

وقد أورد دركيم Dorkheim نفس هذا التعريف في كتاب آخر (٢) وأصر

Annee Sociologique, Paris Vol. iv, pp2-3. (١)

The Elementary Forms of Religious Life, p. 102. (٢)

على أهمية جانب التسمية إذ الاسم هو الذى يكون العشيرة ، وهذا الاسم يدل  
تارة على الطوطم وتارة على الجلد الأعلى الذى تحدر منه أفراد العشيرة

ومن ثم نرى أن العشيرة بهذا التعريف هى نوع من الأسرة إذ أنها مكونة  
من أناس يعتبرون أنفسهم متحدرين من أصل واحد مشترك ، ولكنها تتميز  
عن الأنواع الأخرى للأسرة بأن النسب فيها قائم على أساس الاشتراك فى الطوطم  
لا على علاقة الدم ، وعلى هذا فجميع أفراد العشيرة هم ذوو قرينى لا لأنهم  
إخوة أو آباء أو أعمام أو بنو أعمام بل لأنهم جميعاً ينتسبون الى الحيوان أو النبات  
الذى يكون الطوطم ويحملون اسمه ولهم نفس طبيعته ، والطوطمية totemism  
منتشرة فى جميع أنحاء الدنيا فهى موجودة فى أمريكا وأستراليا وميلانيزيا وإفريقية  
وبعض أجزاء آسيا (١)

أما عن النظريات المتعلقة بالطوطمية فليس هذا موضع شرحها وعلى من  
أراد أن يطلبها فى المطولات ، وأما عن الطوطمية عند الساميين فسنحدث  
عن ذلك فى موضع آخر

#### ثانياً — العشيرة الطوطمية الإقليمية

Territorial tie of the totemic Clan

يوجد نوع آخر من العلاقة الطوطمية بين أعضاء العشيرة ونعنى بذلك علاقة  
الإقليم ، وفى هذه الحالة يعتقد أعضاء العشيرة أن الرباط الذى يصل بينهم هو  
اشتراكهم جميعاً فى طوطم واحد يشغل قرية معينة أو إقليمًا محدوداً ، ويرى  
بعض العلماء أن الذى يحدث حقيقة فى معظم الحالات الطوطمية هو أن عدداً

من الجماعات الطوطمية تشترك في شغل قرية أو إقليم معين وان بعض هذه الجماعات يختلط بالبعض الآخر دون تمييز موضعي بين أفراد هذه الجماعات رغم اختلاف طوطم كل منها<sup>(١)</sup>

### ثالثا — العشيرة الإقليمية Territorial Clan

في هذا النوع من العشيرة لا يوجد أثر للطوطمية مطلقاً بل إن الرباط الوثيق الذي يصل بين أعضائها هو أنها تسكن اقليماً واحداً مشتركاً. وفي هذه الحالة يعتقد أهل ذلك الاقليم أو القرية أو البقعة أن بعضهم يمت إلى بعض بحكم السكنى والجوار في الديار. ونحن نجد هذا النوع من العشيرة بين الجماعات التي نبذت البداوة المحضة وشرعت في الاستقرار<sup>(٢)</sup> وهذا النوع في طوره الأول يكاد يوجد دائماً إلى جانب العشيرة الطوطمية ولكن سرعان ما يتغلب عليها ويقضى على الطوطمية بالكلية. وذلك لأن فلاح الارض والاستقرار فيها هو أغرى للرجال وأوثق لقلوبهم وأشد سلطاناً على نفوسهم. وسرعان ما نجد الاستقرار والاشترك في الحياة الموضعية قد غدا معينا لعادات تصح مقبولة بالضرورة وتتأصل في النفوس إلى حد أن نخلق غريزة الاجتماع والوحدة والتعاون ويصبح الانسان مديناً بالطبع

ولم يكن الاستقرار والاشترك في الحياة الموضعية هو وحده الحافز على تكوين هذه الاقسام الإقليمية داخل الجمعيات البشرية بل ثم حافز آخر وهو نمو العشيرة واتساعها وشعورها بالحاجة إلى الانقسام إلى أقسام مماثلة يظهر أثرها في شكل

Rivers, p. 22.

(١)

Moret and Davy, p. 55

(٢)

جديد . وهذه الأقسام هي التي يسميها «دوركيم» باسم Segments<sup>(١)</sup> أى مجموعة العشائر وهي في رأي تقابل ما يسميه العرب بالأفخاذ والبطون والعائر . ودليلنا على ذلك أن علماء الاجتماع أنفسهم قد صعب عليهم أن يحددوا بالضبط الجماعة الإقليمية وذلك لاختلاف أحجامها وتعدد أنواعها ، فهم يقولون إنها قد تكون كبيرة الحجم إلى حد أنها قد تأخذ شكل القبيلة ، وقد تكون أحياناً صغيرة إلى درجة أنها تشبه الفصيلة ، وقد اعترف هوت Howitt<sup>(٢)</sup> بأنه لم يستطع في كثير من الأحيان أن يقرر نوع الجماعة التي يعالجها ، ومن ثم يقين لنا أن المعنى الذي يقصده علماء الاجتماع من «العشيرة الإقليمية» أو «الجماعة الإقليمية» يكاد يضارع المعنى الذي يقصده العرب من كلمة «الحى» وأرى أن هذه الكلمة هي خير اصطلاح نطلقه على ما يسميه علماء الاجتماع territorial clan

ويرى العلماء أن العشيرة الإقليمية أو بعبارة أدق الجمعية الإقليمية تمثل مرحلة أرقى في التطور الاجتماعى وأنه كلما تقدمت الجمعية الإقليمية كلما تضاءلت العشيرة القديمة المسماة بالطوطمية إلى أن تختفى بالكلية في النهاية<sup>(٣)</sup> وقد ذكرنا آنفاً أن العلاقة الاجتماعية التي تصل بين أعضاء العشيرة الطوطمية هي علاقة النسب إلى طوطم واحد ينتسبون إليه ويحملون اسمه . أما العلاقة التي تربط أعضاء الجمعية الإقليمية التي استقرت في بقعة محدودة خاصة بها فهي علاقة الأرض

Dorkheim, La Division du Travail Social, 2nd ed. 1902, p. (١)

150, also, Les Regles de la Methode Sociologique 7th ed. Paris 1919, p. 103.

Howitt, The Native Tribes of South-East Australia, (٢) London 1904

Moret and Davy, From Tribe to Empire, p. 57. (٣)

التي يسكنونها والطينة التي يفلحونها أو ترعى دوابهم كالأها<sup>(١)</sup> أو بعبارة أخرى هي علاقة «الحبي» و «الحمي» وعلاقة الجوار في الديار.

على أن من المحتمل أن تكون العلاقة الاقليمية هي محض تعبير آخر عن الانتساب إلى سلف واحد وأن أهل قرية أو إقليم يؤلفون عشيرة واحدة لأنهم متحدرون حقيقة من جد أعلى مشترك<sup>(٢)</sup>

ومهما يكن من أمر فالعشيرة الاقليمية تمثل النوع الذي كان شائعاً عند الساميين في فجر التاريخ. ولنول الآن وجهنا شطر نظام العشيرة عند الساميين فنقول : -

(١) Cf. Sumner Maine, Notes on the History of Ancient Institutions, p. 91.

Cf. Rivers, p. 22.

(٢)

(٣)

## الساميون والطوطمية

THE SEMITES AND TOTEMISM

هل مارس الساميون الطوطمية ؟

هذا سؤال طلى يحسن الخوض فيه ، وللإجابة عليه يجب أن أقول - ذاعت نظرية الطوطمية . totémisme في النصف الأخير من القرن الماضي فخلبت أفئدة العلماء وبهرت عقولهم وافتتقوا بها افتتاناً كبيراً

وكان أن سحرت كذلك لب العلامة ريرتسن سمث فراح يطبقها على العرب وراح يبرهن على أن قدماء العرب قد مارسوا الطوطمية وذلك في مقال نشره بالمجلة اللغوية عام ١٨٧٩<sup>(١)</sup> ثم فيما كتب من بعد ، ومنذ ذلك الحين صب على قلبه أساتنة آخرون منهم Wilken و Stade و Joseph Jacobs و Gray و Stanly و Cook و Barton ولكن الأخير قد عاد فعدل عن رأيه

وقد بنى ريرتسن سمث نظريته في الطوطمية عند العرب على أمور منها :  
أولاً - أن كثيراً من القبائل العربية كانت تسمى بأسماء الحيوان<sup>(٢)</sup> وأن آثار هذه التسمية قد ورد ذكرها في التوراة .

ثانياً - أن بعض العرب كانوا يعتقدون أنهم متحدرون حقيقة من الحيوان الذي ينتسبون إليه .

Smith, Journal of Philology ix, p. 75 ff.

(١)

Ibid p. xx 79-88

(٢)

ثالثاً — ان العرب كانوا يعبدون آلهة في صورة الحيوان (١)  
 رابعاً — انهم كانوا يعتقدون أن بعض الحيوانات إنما هي رجال مسخت  
 وكانوا يجمعون عن أكل بعض أنواع الحيوان ظناً منهم أنها أناس متسكرة .  
 خامساً — انهم كانوا يعتقدون أن الجن شركاء لله وهو يرجح أنها آلهة  
 قديمة مهجورة وكان العرب يظنون أن الجن تظهر في هيئة انسان أو وحوش مكسوة  
 بشعر طويلة (٢) .

والنتيجة التي وصل إليها برتسن سمث هي أن جميع الساميين لابد أن  
 مارسوا الطوطمية في مرحلة من مراحل تطورهم الاجتماعي وأن آثار الطوطمية إنما  
 بقيت في جزيرة العرب لأن النظم الاجتماعية والسياسية قد تقدمت عند الشعوب  
 السامية الأخرى في عصر قديم جداً بينما ظل العرب على حالهم احقبا طوالا (٣)  
 ولكي نقيم الدليل على وجود الطوطمية عند شعب من الشعوب يجب أن  
 نبحث عن امتازات خاصة وهي :

أولاً : تسمية العشار بأسماء الحيوان أو النبات .

ثانياً : اعتقاد أعضاء العشيرة في أنهم يمتون بفلاقة الدم إلى ذلك الحيوان  
 أو أنهم متحدرون من ذلك النبات الذي اتخذوه لهم طوطماً .

ثالثاً — تعظيم الطوطم وتقديسه ورفعته إلى مقام العبادة واتخاذها الهاللعشيرة  
 ويترتب على ذلك عدم استعمال حيوان الطوطم كطعام عادي .

Kinship. p. 192-201 and Wellhausen. Reste Arabische (١)

Heidentums. p. 19-23.

Religion of the Semites p. 357

Kinship, 2nd ed. 252.

(٢) قازن

(٣) أنظر

رابعا — أن تحتوى القبيلة على عدة جماعات لكل منها علاقة خاصة بنوع مختلف من الطوطم .

فاذا وجدنا هذه الأمور مجتمعة فى قبيلة من القبائل كان ذلك برهاننا بينا ودليلا ماديا على أنها قبيلة طوطمية . على أننا فى كثير من الأحوال قد لا نجد هذه العلامات فى صورتها البدائية البحتة وخاصة عند الشعوب القديمة إذ قد يحدث أن تتطور هذه العلامات إلى حد كبير فى داخل الجماعة نفسها كما حدث عند قدماء المصريين مثلا . فمن ذلك أن طوطم المشيرة الذى كان يعبد أولا فى صردة حيوان قد يظهر بعد ذلك فى هيئة إنسان ليس له من صفات الحيوان إلا قليل .

فالاستاذ سلجمان مثلا يعتبر قدماء المصريين من الأمم التى كانت تمارس الطوطمية قطعا ومع هذا فقد عجز أن يجد من الشواهد ما يدل على أن كان للحيوانات علاقة بالنظام الاجتماعى أو بالعبادة عند البيجا وهم من القبائل الحامية نعم إنه وجد الوثنيين من الحاميين الذين يسكنون فى جهات الحبشة يقدسون بعض الحيوانات كالضبع والحية والتمساح واليوم ومع هذا لم يجد من الأسباب ما يحمله على القول بأنه كان لهذه الحيوانات علاقة بالطوطمية<sup>(١)</sup> .

وهذه نقطة هامة يجب أن نلاحظها دائما عند بحثنا فى طوطمية الساميين .

---

Seligman, C. G. «Some aspects of the Hamitic Problem (١) in the Anglo-Egyptian Sudan» in JRAL, Xliii, 1913.

تسمية العشائر بأسماء الحيوان عند الساميين

إذا ولينا وجهنا شطر قدماء العرب وجدنا أن كثيراً من قبائلهم قد تسمت بأسماء الحيوان وقد ترجع هذه الأسماء إلى عصور ما قبل التاريخ وبعضها بصيغة المفرد وبعضها بصيغة الجمع مثل كلاب وأنمار وأراقم وضباب وغيرها. وهذه تشبه بالضبط أسماء القبائل الطوطمية الموجودة في أمريكا وأستراليا.

ويبدو أن لم يكن ثم فرق بين صيغة المفرد وصيغة الجمع في مثل كلب و كلاب والنمر والتميرون فقد ذكر المبرد في الكامل<sup>(١)</sup> أن « أمثيال قوهم الأزارقة والمهالبة والمناذرة يرجع إلى باب من النسب وهو أن يسمى كل واحد منهم نميراً أو أشعر فهذا يتصل في القبائل ». ومن أسماء القبائل عند العرب :  
 ١ - أسد - وهو اسم يطلق على عدة قبائل منها أسد بن خزيمه من معد و بنو أسد بن عبد مناة وأسد بن مرة من منسج وأسد بن عبد العزى في قريش و بنو أسد بن الحارث في الأزدي. ويقول ابن دريد<sup>(٢)</sup> أن أسد والأزد مشتقان من أصل واحد وأن الأزدي بالألف واللام دائماً. والأزدي بن الغوث من قبائل اليمن ولها عدة فروع. ومن قبائل الأسد أيضاً بنو أسد ويقول الهمداني<sup>(٣)</sup> إنها

(١) الكامل للمبرد باب النسب إلى المضاف

(٢) ابن دريد كتاب الاشتقاق ص ٢٥٨

(٣) الهمداني صفة جزيرة العرب ص ١١٨

كانت في عنز . وذكر ابن دريد بن فرهود بن شبانة ويقال لهم الفراهيد (١) .  
والفرهود ولد الأسد في لغة أزدعمن . ولبوان وهي بطن معافر ولبا وهي قبيلة  
كبيرة من عبد القيس ، والليث وغير هؤلاء من القبائل .

٢ - النمر ونمر وأتمار - وهي أسماء أطلقت على كثير من عشائر العرب  
وقبائلهم وكان سكان حران يعرفون في السريانية باسم ( بَرْنَمَرِي ) أن بنو النمر  
ويقال إنهم كانوا يعبدون إلها يسمى في السريانية ( نمر ) أن النمر . وذكر  
الدويري (٢) أن النمر كان يكنى بأبي عمرو كما كانت الضبعة تكنى بأبي عامر .  
٣ - فهد - وقد سمت به إحدى عشائر كلب .

٤ - بيته - نوع من الظباء والأرام - وهو اسم لبطن من قيس عيلان ولبطن  
من ضبيعة ، ويبدو أن الرثم كان مقدساً في حبر على وجه الأخص ، فقد ذكر  
ابن الكلبي في كتاب الأصنام أنه كان لمحبر بيت بصنماء يقال له رثام (٣) يعظمونه  
ويتقربون عنده بالذبائح فلما انصرف تبع من سيره الذي سار فيه إلى العراق  
قدم معه الخبران اللذان صحباه من المدينة فأمرهما بهنم رثام ففعل وتهود تبع  
وأهل اليمن ومن ثم لم يسمع بذكر رثام في شيء من الأشعار ولا الأسماء ، ويقول  
زيرلسن ممث (٤) إن الرثام والظبيان والغزلان بأنواعها المختلفة كانت مقدسة في  
كثير من أجزاء العالم السامي وأنها ظلت تعبد إلى عصر متأخر في بيوت الأصنام  
في مكة وتبالة وغيرها

(١) ابن دريد ص ٢٩٤

(٢) الدويري حياة الحيوان ج ٢ ص ٨٩٣

(٣) كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ١٠١

Smith, the Religion of the Semites, Note F.

(٤)

وقد وجدت صورها في فينيقية منقوشة على الأحجار الكريمة وعلى نقود مصرية في اللاذقية . وقد أورد سميث<sup>(١)</sup> ما نقله شيرنجير عن ابن الجاور فقد ذكر أن قبيلة بني الحارث باليمن كانوا إذا مات غزال قاموا إليه فسلوه وكفنوه ثم دفنوه ولبسوا عليه الحداد سبعة أيام كأحد أفراد القبيلة . وهذه ولا ريب ظاهرة طوطمية تشبه تلك الموحودة بين قبيلة البومه في ساموا ، وتذكرنا بما كان يفعل قدماء المصريين من تكفين حيواناتهم المقدسة ، ومن الشواهد التي قد تؤيد ما ذكره ابن الجاور أن ديار بني الحارث كانت تدعى « دار الغزال » تصغير « غزال » وقد أوردها ياقوت<sup>(٢)</sup> فيما أورد من ديار العرب . ولكن الأصمعي لم يذكر هذا الاسم في كتابه دارات العرب ولعل ذلك لأنه اقتصر على ست عشرة دارة منها . أما الفيروزابادي فقد جمع ما لم يجمع غيره من دارات العرب وهي تنيف على مائة وعشر . وذكر من بينها « دارة الأرام »

ونحن لا نرى فيها أورد سميث من رواية ابن الجاور دليلا على أن العرب كانوا يمارسون الطوطمية قطعا . فتعظيم قدماء العرب لبعض أنواع الحيوان كان يرجع ولا ريب إلى أنهم كثيرهم من الأمم القديمة كانوا يعتقدون أنها تشترك مع الانسان في بعض الصفات الشخصية . ومن أجل ذلك كانوا يمتنعون من أكل لحومها . وقد شاهد بعض الرحالة إحدى قبائل البيحبا بالقرب من سواكن لا تأكل لحم الغزال مطلقا كما يقال إنه كان من عادة بعض القبائل التي كانت تسكن أرض البشارية أنهم إذا مات حيوان من أبقارهم دفنوه باحتفال مهيب<sup>(٣)</sup> .

Ibid, Note A.

(١)

(٢) انظر معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٥ طبعة اوربا

(٣) انظر G.W. Murray «Graves of Oxen in the Eastern Desert of Egypt» in JEA, Xii 1926.

ويبدو أن العرب في الجاهلية كانوا يعتقدون أن للظباء والآرام والغزلان قوة خفية كما لغيرها من كثير من أنواع الحيوان وأنها قادرة على البطش والانتقام وذلك ظاهر من الأساطير التي ظلت متداولة إلى ما بعد ظهور الإسلام . فقد ذكر الدميري نقلاً عن مجاهد أن تجاراً من الشام دخلوا مكة في الجاهلية بعد قصى بن كلاب « فنزلوا بوادي طوى تحت سمرات يستظلون بها فاخترتوا على ملة لهم ولم يكن معهم ادم فقام رجل منهم إلى سهمه فرمى ظبية من ظباء الحرم وهي حولهم ترعى فقاموا إليها فسلخواها وطبخوها ليأتمدوا بها . فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلى بها وبعضهم يشوى إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعاً ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التي كانوا تحتمها » (١) .

٤ - بدن - نوع من الوعل - وقد تسمت به بطن من كلب وعشيرة من بكر وائل وعشيرة وعلان من مراد . وقد ورد في كتاب الاشتقاق لابن دريد ذكر عشيرة تدعى وعلة وكذلك في ياقوت .

٦ - الضبع وضبيعة - وهو اسم أطلق على عدد من قبائل العرب ومن كناها أم خنور وأم طريق وأم عامر وأم نوفل . ومن كنى الذكركر أبو عامر وأبو كلدة وأبو الهنبر . ويميز الامام الشافعي أكل لحم الضبع إذ أنها ليست عنده من ذوات الناب التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل لحومها . وهو يقول : ما زال لحم الضبع يباع بين الصفا والمروة عن غير نكر (٢) . أما أبو حنيفة

(١) الدميري حياة الحيوان ج ٢ ص ١٢٨

(٢) الدميري ج ٢ ص ٩٨

فقد حرم أكلها وهو مكروه عند مالك .  
 وفي البيهقي عن عبد الله بن مغفل السلمي قال : قلت يا رسول الله ما تقول في  
 الضبع ؟ قال : لا آكله ، ولا أنهى عنه .

ولعل بعض عشائر العرب قد أحجموا عن أكل الضبع لاعتقادهم أن لها  
 صلة بالآدميين لأنها تحيض كما تحيض أنثى الانسان . أو لعل هذا الاحجام كان  
 متوارثاً منذ قديم الزمان . ومن ثم فهي عادة تشبه العادة المتبعة عند القبائل الطوطمية  
 ومن الشواهد الدالة على أن العرب كانوا يعتقدون بوجود صلة خاصة بين الضبع  
 وبين بعض الرجال ما ذكره الدميري من أنه كان « في العرب قوم يقال لهم  
 الضبيعيون لو كان أحدهم في قفل فيه ألف نفس وجاء الضبع لا يقصد أحداً سواه »  
 ومن الواضح أن هذا الاعتقاد وما يشبهه عريق في القدم . وقد يجد بعض العلماء  
 في هذا بقية من الطوطمية .

٧ - دب - اسم عشيرة من أسبع كلاب وعشيرة من بكر وائل . ودب اسم  
 امرأة من هذيل . ولا يزال الدب يوجد في الجهات الجبلية من أرض هذيل .

٨ - ذئب - اسم عشيرة من الأزدي وسرحان اسم عشيرة من أسبع كلاب  
 وبنوسيد ذكرم ابن دريد في ضبة . وذؤيب ذكرم الجاحظ في ولد ربيعة نزار  
 وكان العرب يعتقدون أن الرجل منهم إذا علق كعب الذئب الأيمن على رأس  
 رمح ثم اجتمع عليه جماعة لم يستطيعوا الوصول إليه ، وذلك ولا ريب يشبه بعض  
 مظاهر الطوطمية لأن الرجل يعتقد أنه في حماية طوطمه :

وكانوا يعتقدون أن الذئب يفهم ويتكلم ويحاج وينظر . فقد قال ابن  
 عبد البر وغيره أن الذئب كلم من الصحابة ثلاثة رافع بن عمير وسلمة بن الأكوع  
 وأهبان بن أوس الأسلمي . ولذلك تقول العرب هو كذئب أهبان ، وذكر الدميري

مارواه الحاكم في مستدرکه إذ قال « بينا راع يرعى بالحرة إذ عدا الذئب على شاة فخال الراعى بينه وبينها فألقى الذئب على ذنبه وقال يا عبد الله تحول بيني وبين رزق ساقه الله إلى . فقال الرجل وأعجبا ذئب يكلمني . فقال الذئب ألا أخبرك بأعجب منى هنا رسول الله ﷺ بين الحرتين يخبر الناس بأنباء ما قد بسبق . فزوى الراعى شياهاه إلى زاوية من زوايا المدينة ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال صدق والذي نفسى بيده » (١)

ومثل هذا الاعتقاد شائع في كثير من الأمم وهو يرجع ولا ريب إلى عصر سحيق في القدم ولا أظنه يدل حتما على الطوطمية .

٩ - ثعلب و ثعلبة و ثعالب - وهي أسماء أطلقت على كثير من العشائر فمن ذلك ثعالب طى . و ثعلب اسم عشيرة في كلب و يطلق ثعال على بعض عشائر طى و غيرها .

١٠ - ثور - وهو اسم يطلق على قسم من كلب فقد ذكر ابن دريد أن قبائل كلب كانت منقسمة إلى قسمين كلب و ثور . و ذكر ابن خلكان (٢) ثلاث عشائر تسمت باسم الثور ، و عجل اسم عشيرة في بكر وائل ، و قد عبد الساميون الشماليون العجل وورد ذكره في قصة موسى في التوراة وفي القرآن .

١١ - عنز - اسم قبيلة من وائل ، و قد وجد الحمداني قبيلة تدعى عنز في جرش باليمن ، و عنزة و كانت تعبد صنما يقال له سعير . (٣)

١٢ - فهد - وهو نوع من الجدى الحجازى على ما يقول ابن دريد وجمعه

(١) الدميرى جزء أول ص ٤٧

(٢) ابن خلكان رقم ٢٦٥

(٣) كتاب الأصنام ص ٤١

فهاد ، وقد أطلق على بطن من كعب .

١٣ - جمعه - بطن من كعب بن ربيعة . ويقال انها كلمة بمنية ، ويقول  
البكري ان الكباش كان يعبد في بعض قبائل البرير .

١٤ - جحش - بطن من العرب .

١٥ - كلب و كلاب و كليب - وهي أسماء أطلقت على كثير من قبائل العرب  
ومنها كلب بن ربيعة و مكالب بن ربيعة و كليب بن يربوع و بنو الكلبة و الكلبة  
لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبري و بنوها بنو الكلبة .

وقد نشبت بسبب الكلبة حرب بين بعض قبائل العرب وذلك ظاهر من  
سياق القصة التي أوردها الجاحظ<sup>(١)</sup> في سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن  
دوس إلى أزد شنوءة من السراة ، فقد كان السبب أن بني اخته قتلوا كلبه جارهم  
وكانوا أعد منه ففضب ومضى وسم النجد الذي هبط فيه نجد الكلبة ، فإكان  
الرجل لينضب ويستعد لقتالهم لو لم يكن يعتقد أن الكلبة بمثابة طوطمة ولا  
نستطيع أن نقيس على ذلك حرب البسوس بين كليب وجساس فلما سبب آخر  
ولكننا نستطيع أن نقيس عليها حرب الفجار الأولى التي كادت تقع بين كنانة  
وقيس عيلان بسبب قرد قتله الكنانى فى سوق عكاظ . فى كلا الحادئين قد  
يجد أصحاب الطوطمية شيئاً من آثارها رغم ما ذكر نقلة الأخبار من تعليل ورغم  
ما نعلم من أن العربى كان يسميت فى الذود عما فى حوزته . و يبدو أن العرب كانوا  
قديماً يعلقون أهمية كبرى على نباح كلاب الحوآب إذ يبدو أنهم كانوا يندهبون  
إليها للاستخاره والعرافة كما كانوا يفعلون فى زجر الطير وكما كان يفعل الاغريق

(١) الجاحظ كتاب الحيوان ج أول ص ١٥١

في طلب العرافة من آلهتهم ، فكانت هذه الكلاب إن نبحتهم تشاءموا واقلعوا عن أمرهم وإن لم تنبحهم تفاءلوا ومضوا لشأنهم ، وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ما بعد ظهور الاسلام ، ودليلنا على ذلك أن عائشة لما انصرفت فيمن معها إلى البصرة لحضور واقعة الجمل مرت بباء بني كلاب فعوت كلابهم ، وسمعت عائشة نباح الكلاب فقالت أي ماء هذا فقال السائق لجلها الحوآب فتشاءمت واسترجعت وقالت إني لهية قد سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه ليت شعري أيتكن تنبجها كلاب الحوآب (١)

١٦ - قرد - وهو اسم فرع من هزيل وهو الفرع الذي منه عمرو بن معاوية ويظن سمى أن اسمه الحقيقي عمرو بن قرد ولأنهم ربما كانوا في الأصل من عبدة القرد ولا يزال القرد يوجد في أرض هذيل

١٧ - نعامة - ومن ذلك بنو نعامة وهم بنو عمرو بن أسد

١٨ - غراب - اسم بطن من فزارة ، وللغراب علاقة بالنخل ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان (٢) .

١٩ - حدأة - بطن من مراد .

٢٠ - حمامة - بنو حمامة بطن ازد .

ويبدو أن كانت الحمامة مقدسه عند الساميين الشماليين ولها علاقة بعبادة الآلهة عشتار أو عشتروث . وقد كشفت لنا الحفريات عن هيكل بناه الكنعانيون في بيسان بفلسطين وأقاموا فيه صما للآلهة عشتار وهي تحمل في

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٣٠٥ ، أيضا الطبرى ج ٦ ص ٣١٢٦

(٢) كتاب الحيوان ج ٣ ص ١٤١

أحدى يديها حمامة (١) .

وكان الحمام من بين الطيور التي عبد العرب أصنامها في الجاهلية . وقد أقاموا له صنما في الكعبة . فقد ذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة وقضى طوافه « دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها (٢) » .

وكان الحمام مقدسا في مكة في الجاهلية ولا يزال يضرب المثل في الأمن بحمام الحرم .

وكان الحمام يستعمل في العصور القديمة كرمز لتقديس العهود والمواثيق ، وقد كان من بين الطيور التي قربها « ابرام » إلى ربه عندما عاهده كما تحدثنا بذلك التوراة (٣) « و ابرام » هو الذي دعى فيما بعد باسم إبراهيم . ومن الأشياء التي نعاها اليهود على أناس من بينهم كانوا من عبدة الحمام ، ولقداسة الحمام كان بعض سكان سوريا لا يأكلونه ولا يلبسونه ، فاذا لمس أحدهم حمامة صار نحاساً طول يومه (٤) .

٢١ — هوازن — ومفردها هوزن وهو نوع من الطيور كما يقول ابن دريد .

٢٢ — حنش وافعى وارقم وحية — قال ابن دريد بنو حنش بطن من الأوس ، وذكر الهمداني جماعة آخرين هم بنو الافعى ثم الارقم وهم عشائر من ثعلب ، ثم بنو حية ، وقد ورد في الأغاني أنهم كانوا ملوك طيء في أوائل الاسلام

J.G. Duncan, Digging Up Biblical History vol. II p 89. 109.(١)

(٢) ابن هشام ص ٨٢١

(٣) سفر التكوين اصحاح ١٥ آية ٩

Smith, R. S., P. 294.

(٤) انظر

وقد كان للحية سهم معلى فى الأساطير السامية ، فالحية هى التى اغوت حواء وأخرجت آدم من الجنة ، وكان العرب يعتقدون أن الحيات كانت فى الأصل من الآدميين ثم مسخت كما مسخت القردة من بنى إسرائيل<sup>(١)</sup>. ولهذا كانوا يعتقدون أنها تعقل وتفسهم وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ما بعد ظهور الإسلام . فقد روى الحافظ عبد البر أن عقبه بن نافع لما فتح إفريقيه وقف على موضع يقال له القبروان وهو واد كثير الحيات . وقال : يا أهل هذا الوادى إنا حالون إن شاء الله فاطنون ، ثلاث مرات . قال : فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا أخرج من تحته حية حتى هبطن بطن الوادى ، ثم قال انزلوا باسم الله فاعمروا القبروان

وكانوا يعتقدون أن الشياطين تظهر فى هيئة الحيات ، وقد أورد الدميرى قصة الفتى الذى ذهب إلى منزله فوجد حية فقتلها وركب الرمح بالباب ثم اضطربت عليه فقتلته فجاء أصحابه إلى رسول الله لكى يدعو الله أن يمحيه فقال استغفروا ربكم لصاحبكم ثم قال : « إن فى المدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهم شيئاً فاذنبوه ثلاثة أيام فاذا بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فأعما هو شيطان<sup>(٢)</sup> »

وكانت الحية تعبد عند الساميين ، وقد كشفت لنا الحفريات الحديثة عن عدد من الأصنام على هيئة الأفاعى فى المعبد الشمالى الذى أقامه الكنعانيون لعبادة الأفعى بمدينة بيسان بفلسطين<sup>(٣)</sup> ويرجع تاريخ المعبد إلى زمن تحوتمس الثالث ( ١٥٠٠ — ١٤٥٠ ق م ) .

(١) الدميرى جزء اول ص ٣١٩

(٢) الدميرى أول ص ٣١٩

(٣)

و ييسان هي بالعبرية «بيت شان» ، وقد يكون معناها «بيت شعان» أى بيت الشعبان لأن الشين فى العبرية تقابل الشاء فى العربية غالباً ثم ان «شعان» أو سخان هو اسم اله بابل على هيئة الشعبان (١) وربما كان الكنعانيون هم الذين جلبوا معهم عبادة الحيات والافاعي من بابلونيا الى فلسطين ، على أنه يحتمل كذلك أن تكون هذه العبادة قد جاءتهم من مصر ، ومهما يكن من أمر فنحن نعلم يقيناً أن الاسرائيليين قد عبدوا الافاعي والحيات وأقاموا لها أصناماً من نحاس ، وذلك واضح مما ورد فى التوراة فى سفر الملوك الثانى فقد ورد فى الاصحاح الثامن عشر أنه لماولى حزقيا بن آحاز ملك يهوذا «أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع المسوارى ومصحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى اسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان»

ومن أسماء الحيوان التى تسمى بها العرب أيضاً ضب وعدل (فأر) وقنفذ وجمل وجندب وجراد ويربوع

ولا حاجة بنا إلى الافاصة فى شرح كل هذه الأسماء فقد أوردنا ما فيه الكفاية للدلالة على أن العرب قد تسوا بأسماء كثير من الحيوان وأن ثم صلة وثيقة بين هذه الأسماء وبين كثير من معتقداتهم ، وفى كل هذا قد نجد بعض مظاهر الطوطمية (٢)

وقد وجدنا بعض العشار الساميه الأخرى قد سمت كذلك بأسماء الحيوان ، وقد عكف الاستاذ «جرى» Gray على دراسته ماورد منها فى أسفار

Ibid p. 108

(١)

(٢) لأجل اسماء الحيوان التى كانت تطلق على الالهة عند قدماء العرب أنظر

Nielsen .Handbuch,i, 192.

العهد القديم ووجد أنها تقع في ثلاث مجموعات تحوى الأولى منها ثلاثة وثلاثين اسماً من أسماء الحيوان وتطلق على أما كن وتحوى الثانية أربعة وثلاثين اسماً وتطلق على عشائر وتحوى الثالثة ثلاثة وثلاثين اسماً وتطلق على أفراد<sup>(١)</sup>

هذا فيما يتعلق بتسمية القبائل والعشائر بأسماء الحيوان عن الساميين وقد وجد ربرتن سمث ومدرسته في هذه التسمية أقوى دليل وأنصح برهان على أن العرب وسائر الساميين كانوا يمارسون الطوطمية قديماً .

ونحن لا نريد أن تتعجل في الحكم ولا أن نطأ مواقع قدمه على غير هدى فقبل إصدار حكم خطير مثل هذا يجب أن نلجج كل باب وأن نستقصى كل احتمال ممكن . والحق أن وجود هذه الأسماء بين القبائل العربية والسامية لا يبرر الجزم بوجود الطوطمية . ذلك لأن عدد هذه الأسماء قليل نسبياً لا يناهز الثلاثين إلى الأربعين . ونحن إن احصينا أسماء القبائل العربية وما بمت إليها من عشائر وبطون والحاذ وعشائر وفصائل لبلغت عدة مئات<sup>(٢)</sup> .

ثم إن من تسمى منهم بهذه الأسماء قد يكون فعل ذلك لصفات ملحوظة أو لاعتبارات خاصة أو لظروف معينة . فقد كان الرجل منهم يسمى ولده أسداً أو ليثاً أو نمراً رجاء أن يصير جريئاً كالأسد أو سريع الوثوب كالنمر . وكان الرجل منهم يدعى أحياناً ظبيان لسرعة عدوه . وقد يوصف بالحمار لشدة صبره واحتماله وهكذا ويحدثنا بر كهارت أن بدويا سمى ولده كلباً تغافلاً بكاتب كان موجوداً في الخيمة وقت ولادته<sup>(٣)</sup> .

(١) أنظر G. B. Gray Studies in Hebrew Proper Names, p. 86ff

(٢) أنظر جورجى زيدان أنساب العرب القدماء

Burckhardt, Notes on the Bedouins and waha 1 (٣)

وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان أن « العرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجمل وحنظلة وقرود على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل فإن سمع إنساناً يقول حجر أو رأى حجراً سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطمه مالتى . وكذلك إذا سمع إنساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد وإن كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبمد الصوت والكسب» .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يختارون أسماءهم لأرهاب أعدائهم كما كانوا يختارون أسماء غلمانهم لمسرتهم ومسرّة ضيوفهم . فقد سئل أبو العريش الأعرابي « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيد كم بأحسنها نحو مرزوق ورباح . فقال إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » .<sup>(١)</sup>

وهذا هو نفس ملاحظه « نولدكه » ولا ريب عندما راح يؤيد الرأي القائل بأن الأصل في التسمية بأسماء الحيوان عند العرب إنما يرجع إلى نوع من الشعر الطبيعي « Natural poetry » . فكما أن البدوي راح ينتزع من الطبيعة أخيلته الشعرية كذلك مال إليها يستلهمها أو يستخيرها أسماء الشخصية . « وإنه لمن الطبيعي حقاً أن يسارع البدوي الذي يعيش في العراء إلى تسمية أبنائه بوحوش الصحراء . وهو مع هذا لم يختار أفخم الأسماء وأكرمها بل كان يسمي ولده بأبشعها وأكرها أملاً في أن يكون مرءاً غير سائق لأعدائه »<sup>(٢)</sup>

(١) الدميري ج ٢ ص ٢٤٢

(٢) انظر

ومهما يكن من أمر فالنتيجة التي وصلنا إليها بعد كشف من البحث والاستقصاء هي أننا لا نستطيع ان نوافق على قول ربرتن سمث ومدرسته بأن تسمية بعض قبائل العرب وغيرهم من الساميين بأسماء الحيوان هي دليل على انهم كانوا يمارسون الطوطمية .

نعم إننا لا ننكر أننا نجد في هذه التسمية وفي علاقة الساميين بالحيوان بعض مظاهر تشبه تلك المتفشية بين الشعوب النطونية ولكن ذلك لا يستلزم انها ترجع قطعاً إلى اصل طوطمي .

## الطوطمية وعبادة الحيوان عند الساميين

يرى أنصار الطوطمية في تقديس الساميين لبعض أنواع الحيوان وتحريم لحومها دليلاً آخر على أهم ما رسوا الطوطمية . وهم يعتمدون في تأييد مذهبهم على ما ورد في الآداب السامية من إشارات لعبادة الحيوان .

ونحن لا نتكر أن الساميين ككل الأمم البدائية الأخرى كانوا يعتقدون أن ثم صلة وثيقة بينهم وبين الحيوان . وقد أشرنا إلى شيء من هذا آنفاً . ولكن الذى نتكره هو إرجاع ذلك إلى أن الأصل في نظام العشيرة السامية كان النظام الطوطمى . فنحن نعلم أن البدوى لطول ممارسته عيشة الصحراء صار يستأنس بوحوشها وبهائمها حتى غدا يخيّل إليه أن وحوش الصحراء أقرب إليه من جميع الكائنات الأخرى ، حتى من الانسان نفسه .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكادت أظير وهو من أجل هذا كان يسكن إليها ويطمئن لها ويعتقد أن لها روحاً كروحه ، ونفساً كنفسه وأحياناً كان يخشاها ويهرّبها ويخاف نغمتها . وقد وجدنا صدى ذلك كله في التوراة .

فقد ورد في سفر الأمثال « الصديق براعى نفس بهيمته » (١) . وفي سفر اللاويين « وإذا أمات أحد إنساناً فانه يقتل . ومن أمات بهيمة يعوض عنها

(١) سفر الأمثال اصحاح ١٢ آية ١٠

نفساً بنفس» (١) : وكانوا يعتبرونها مسئولة أمام القانون كالانسان (٢) . فهي تطالب بالدية وتعاقب كما يعاقب الانسان . فمن ذلك ما ورد في سفر التكوين « وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان » (٣) . وما ورد في سفر الخروج « وإذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه وأما صاحب الثور فيكون بريئاً » (٤) وكان إذا وضعت عليها فدية يجب أن تقتدى نفسها وتدفع كل ما يوضع عليها . فقد ورد في سفر الخروج أيضاً أن الثور « إن وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه وكل ما يوضع عليه . أو إذا نطح ابناً أو نطح ابنة فيحسب هذا الحكم يفعل به » (٥) وهي تعاقب على الزنا كالانسان فمن ذلك ما ورد في سفر اللاويين « وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فانه يقتل والبهيمة تميمونها . وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لنزأها تميمت المرأة والبهيمة إنهما يقتلان ودمهما عليهما » (٦) وكانوا يعقدون معبها العهود والمواثيق كما كانوا يعقدونها مع الانسان ومن ذلك ما ورد في سفر التكوين « وها أنا أقيم ميثاقاً معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم ، هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر » (٧) ، وما ورد في سفر هوشع « وأقطع لهم عهداً في ذلك

(١) سفر اللاويين اصحاح ٢٤ آية ١٧ ، ١٨ و

(٢) انظر المسولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافي ص ١٢ - ٣١

(٣) سفر التكوين اصحاح ٩ آية ٥

(٤) سفر الخروج اصحاح ٢١ آية ٢٨

(٥) سفر الخروج اصحاح ٢١ آية ٣٠ ، ٣١

(٦) سفر اللاويين اصحاح ٢٠ آية ١٥ - ١٦

(٧) سفر التكوين اصحاح ٩ آية ٩ - ١٢ .

اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض» (١) .  
وقد ذكرنا آنفاً أن العرب كانوا يعتقدون أن لبعض أنواع الحيوان قوة خفية  
وأنها قادرة على النفع والأذى والبطش والانتقام . وأن بعضها كان يرى ويسمع  
ويعقل ويفهم وينطق ويتكلم ، وقد أوردنا أمثلة من ذلك فيما سبق ونضيف إلى  
هذا ما ورد في الصحيحين وسنن أبي داود والترمذي عن أبي هريرة أن النبي  
صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت  
ملكاً ، وإذا سمعتم نباح الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً » (٢)  
أما من حيث عبادة الحيوان فليس لدينا دليل قاطع على أن الساميين  
عبدوها كما كان يفعل قدماء المصريين . وكل ما هنالك أنهم عبدوا أصناماً وتمائيل  
على هيئة الحيوان ، وفي رأبي أن ما وردت الإشارة إليه في التوراة من تسمية بعض  
الآماكن بأسماء الحيوان لا ينهض دليلاً على أنها كانت مراکز لعبادتها قديماً  
كما زعم بعض العلماء (٣) .

ونحن نعلم يقيناً أن قدماء العرب قد عبدوا أصناماً على هيئة الحيوان وقد  
أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى « ويعوث ويعوق ونسرا » وقد ذكر  
الزنجشري في تفسيره أن يعوث كان على هيئة الأسد ويعوق على هيئة الحصان  
ونسرا على صورة النسر .

وكان يعوث يعبد في قریش وبه تسمت ، كما كان يعبد في أماكن أخرى ،  
فقد ذكر ابن هشام وياقوت (٤) أنه كان يعبد في منجج وكان مقره في جرش ، وهي

(١) سفر هو شع اصحاح ٢ آية ٢٠ .

(٢) الدميري حياة الحيوان ج أول ص ٣٨٢ .

Bertholets, op. cit. P. III ff.

(٣) قارن

(٤) ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٢٢ . وابن هشام ص ١١٨ .

بلدة بشمال اليمن على رأس بيته تبعاً للهمداني<sup>(١)</sup>. وأنه كان يسكنها عدد من قبائل اليمن المختلطة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويقول الطبري في تفسيره كان يعوث بنى غضيف من مراد بالحرف من سبأ<sup>(٢)</sup> وقد وقعت حروب بين بعض قبائل اليمن لاقتناء ذلك السنم كان من بينها واقعة رزم بين بني الحارث وهمدان ومعهم سدنة الصنم من جهة وبين مراد من جهة أخرى<sup>(٣)</sup> وإلى هذه الواقعة أشار الشاعر بقوله:

وسار بن يعوث إلى مراد فناجزناهم حتى الصباح

ويقول ابن السكلي<sup>(٤)</sup> إن موضعه كان بأكمة باليمن يقال لها منسحج، وكانت تبعده منسحج ومن ولاها، ومما قدمنا يتضح لأول وهلة أن عبادة الأسد كانت شائعة في نجران وشمال اليمن وأن لها اتصالاً وثيقاً بالقبائل التي تسمت بالأسد. ويرى وهوزن Wellhausen<sup>(٥)</sup> أن يعوث ليس الاسم الحقيقي لهذا الصنم بل هو كنيته. وأن ارتباط هذه الكنية بصنم على هيئة الأسد هو دليل على أن هذه الكنية تخفي وراءها اسم الله قديم جداً قد يكون من أصل حمي

أما يعوق وهو صنم على صورة الحصن فكانت تبعده عهمدان ومن والاها من أرض اليمن<sup>(٦)</sup> وكان مقره بقريه يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلي مكة. ولم يسمع ابن السكلي همدان ولا لغيرها فيه شعراً ولم يسمع أنها سمت به

(١) - الهمداني صفة جزيرة العرب ص ١١٨

(٢) - تفسير الطبري ج ٢٤ ص ٦٢ طبعة بولاق.

(٣) - ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٧٧٦. ج ٤ ص ١٠٢٢

(٤) - كتاب الأسماء لابن السكلي طبعته ذكرى بأشبا ص ١٠

(٥) - Wellhausen, Reste Arabische Heidentums, p. 22

(٦) - ابن السكلي كتاب الأسماء ص ٥٧

ولا غيرها من العرب . وهو يعمل لذلك بقرب همدان من صنعاء واختلاطهم بمجمر  
وتهودهم أيام تهود ذونواس .

ويبدو أن عبادة الخليل كانت تمارس كذلك في البحرين أيام أن كانت  
تحت حكم الفرس . فقد ذكر البلاذرى أنه كان في أرض البحرين خلق كثير  
من العرب من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم مقيمين في باديتها . وكان عليهم  
من قبل الفرس عامل يدعى المنذر بن ساوى وهو أحد بنى عبد الله بن زيد المعروف  
بالأسبندى . « ويقال إنه نسب إلى الاسبنديين وهم قوم يعبدون الخليل بالبحرين »<sup>(١)</sup>  
فإن صح هذا فربما كانت عبادة الخليل قد دخلت إلى جزيرة العرب من فارس .  
وقد لاحظ ياقوت أن كلمة الاسبنديين هي كلمة فارسية مشتقة من أسب أى الحصان  
على أن عدم وجود شاهد على أن قبائل العرب قد تسمت باسم من أسماء  
الخليل هو أمر غريب في حد ذاته . إذ ذلك ما يجب أن يتوقعه أصحاب نظرية  
الطوطمية لأن الحصان لم يدخل في جزيرة إلا في وقت حديث نسبياً أى في  
وقت متأخر بكثير عن الزمن الذى تكونت فيه العشاير الطوطمية إن كان ذلك  
قد حدث .

ولا نستطيع أن نستدل من وجود اسم مثل زيد الخليل على أن بعض  
قبائل العرب قد تسمت بأسماء الخليل . فنحن نعلم أن زيد الخليل رجل من أشرف  
طىء وأن اسمه كان في الأصل زيد مناة وأنه سمي زيد الخليل لكثرة خيله وولعه  
بها . وأن النبي صلى الله عليه وسلم سماه زيد الخير . ونحن نعلم فوق هذا أنه وقومه  
كانوا يعبدون الإبل لا الخليل ، وذلك صريح من راية الأثانى ، فقد روى أبو على

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٦

الأصفهاني أن زيد الخليل بن مهلهل وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن سدوس النبهاني وقبيصة بن الأسود بن عامر وغيرهما من رجال طيء « فأناخوا ركابهم بباب المسجد ودخلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فلما رأهم قال أنى خير لكم من العري ومما حازت مناع من كل ضار غير يفاع ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله عز وجل » (١)

وصريح من هذا أن طيئنا كانت تعبد جملاً أسود ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره ابن الكلبي من أنه كان لطييء صنم يقال له الفللس وأنه كان على أنف أحمري في وسط جبلهم الذي يقال له أرجأ كانت النتيجة التي يجب أن نصل إليها هي أن الفللس كان صنماً على هيئة جمل أسود وأنه قد تأكل بفعل المؤثرات الجوية حتى كان يبدو للرائي « كأنه تمثال انسان » (٢)

وأما نسر فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع ، وقد عبدته حمير ومن والاها ولم يسمع ابن الكلبي له ذكراً في أشعار حمير ولا أشعار أحد من العرب ولم يسمع حمير سميت به أحداً ، وهو يعمل لذلك بانتقال حمير أيام تبسع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية ، وهذا تعليل معقول يصح معه أن تكون العرب قد آسمت قديماً باسم من أسماء النسر فعلاً ولكن هذه التسمية قد ضاعت في مجاهل الزمن ولم يصل إلى ابن الكلبي ولا الينا شيء منها وقد ورد اسم نسر في النقوش القتبانية التي نشرها رودو كناكس

(١) انظر الأغاني ج ١١ ص ٤٨ :

(٢) ابن الكلبي كتاب الأصنام ص ٥٩

Rhouloukakis<sup>(١)</sup> وذكر وهوزن Wellhausen<sup>(٢)</sup> أن العبارة الآتية قد وردت في النقوش السبئية وهي «النسر الشرق والغربي» وهو يرى أنها تشير إلى مجموعة الكواكب القريبة من الهجرة أي أن عبادة النسر هنا لها اتصال بالكواكب هذا وقد أورد ياقوت أبياتاً نسبها إلى الأخطل واقترن فيها اسم نسر بالعزى وهذا نصها :

أما ودماء ماثرات نخالها      على قنة العزى وبالنسر عندما  
وما سبح الرهبان في كل بيعة      أبيل الأبيلين المسيح بن مريتا  
لقد ذاق منا عامر يوم لعلع      حساما إذا ماهز بالكف صمّا

والصحيح ما حققه زكي باشا من أن هذه الأبيات لعمر بن عبد الجن كما ورد في اللسان<sup>(٣)</sup> وفي الطبري<sup>(٤)</sup>.

وقد ذكرنا من قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الكعبة بعد الفتح وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها

هذا من حيث عبادة الحيوان في جزيرة العرب ، وقبل أن نترك هذه النقطة يجمل بنا أن نقول كلمة قصيرة عن الآلهة التي ورد ذكرها في النقوش المعينية والتبانية لأهميتها في دحض نظرية الطوطمية ، وسأدعي في ذلك الإيجاز ما استطت . والحق أن مجموع أسماء الآلهة التي ورد ذكرها في نقوش جزيرة العرب

(١) Katabanische Texte. Wien, I, 1914, p. 56 and 122.

(٢) Wellhausen, Reste Arabisch-Heidentums, p. 23.

(٣) لسان العرب ج ١٣ ص ٦٠٠ .

(٤) طبري ج ١٠ ص ٩٢٠ .

وغيرها من المصادر تبلغ أكثر من مائة<sup>(١)</sup> ولكن تمحيص هذه الأسماء وتحليلها تحليلها علميا دقيقا قد دل على أن معظمها نعوت وكثي تخني وراءها الأسماء الحقيقية لتلك الآلهة وقد اعترف كل من رودو كوناكس Rhodokanakis ونيلسن Nielsen بعجزهما في معظم الأحيان عن ضبط نطق هذه الأسماء لأنها وردت في تلك النقوش مكتوبة بالسواكن دون حركات

وقد عكف ولهوزن Wellhausen ورودو كوناكس Rhodokanakis ونيلسن Nielsen على دراسة أسماء هذه الآلهة ، وبدأ نيلسن بالشمس وهو يقول إن المعينين كانوا يعتقدون أنها إلهة لا إله وأنها تمثل الشمس أو بمسارة أدق هي الشمس مؤهلة وهي فضلا على ذلك ترمز إلى الأمومة ، ويرتبط بعبادة شمس عبادة إله آخر يدعى سن أو ود وهو الإله القمر أو هو القمر مرفوعا إلى مقام الربوبية وهو أكبر الآلهة جميعا ، وهو فضلا على ذلك رمز الأبوة ويعرف هذا الإله أيضا باسم ود ، والثالث لهذين الاثنين إله يدعى عنتر وهو كوكب الزهرة وكان العرب يعتقدون أنه ولد الإلهين سن وشمس ممثلا في الزهرة

ومن ثم ترى أن أقدم ثالوث عبده العرب في رأى نيلسن هو ذلك الثالوث الكوكبي ، وهو يرى أن هذه الآلهة الثلاثة هي الأصل وأن كثيرا من الآلهة الأخرى مشتق منها إذ أن هذه الآلهة كانت تسمى بأسماء شتى أو بعبارة أدق كانت تمتعت بصفات كثيرة أو يكنى عنها ببعض الأسماء ، ومن ثم تعددت الآلهة وكثرت

D. Nielsen. Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, (١)  
Bd. I, Kopenhagen, 1927, p. 188.

أسمائها في النقوش التي تحدرت إلينا . فهو يعتقد مثلاً أن الإله ود هو نفس الإله سن إله القمر وما « ود » إلا نعت من نعوته . وكذلك اللات والعزى هما نعتان للإلهة شمس .

وهذا تفسير معقول ونحن نوافق عليه إذ له في العربية أشباه ونظائر . فالعرب كانوا يكنون عن الشيء وكانوا يدلون عليه بصفة من الصفات . وقد تغلب هذه الصفة عليه فلا يعرف إلا بها . ثم إننا معشر المساميين نطلق على الذات العلية اسم « الله » وهو اسم واحد . ومع ذلك فله الأسماء الحسنى وهي تسعة وتسعون وما هي في الحقيقة بأسماء إن هي إلا صفات قائمة بالذات .

ولكن بارتون Barton لا يوافق على ما ذهب إليه نيلسن من أن هذا الثالث السكوكبي — شمس وسن وعشر — هو أقدم ما عبد العرب . وهو يقول إن الشواهد لا تزكي هذا الرأي ولا تؤيده إذ المعروف أن عبادة الآلهة الأرضية سابقة على عبادة الأجرام السماوية كما أثبت ذلك برستد Breasted بما استنبطه من عبادة قدماء المصريين . فديانة قدماء المصريين قد بدأت بعبادة آلهة أرضية في صورة الحيوان ثم تطورت فكرة العبادة فصارت هذه الآلهة تعبد في صورة إنسان ثم طفق المصريون يربطون هذه العبادة بالشمس وغدوا يظنون أن بعض هذه الآلهة هي والشمس شيء واحد .

ثم إننا إذا ولينا وجهنا شطر النقوش الميمنية — وهي أقدم النقوش التي تحدرت إلينا — وجدنا ثم ثلاثة آلهة تذكر دائماً بهذا الترتيب :

عشر — ود — نكرخ ١

فلما انساب المعينيون إلى شمال جزيرة العرب خلفوا هناك طابعهم الذى لا ينمحي كما يظهر ذلك من النقوش التمودية<sup>(١)</sup>. فقد وجدنا في هذه النقوش أن تلك الآلهة المعينية الثلاثة تذكر كذلك على هذا الترتيب دون تغيير أو تحوير<sup>(٢)</sup> ومن اضطراد هذا الترتيب يتضح أن عشر لا بد أن كان كبير هذا الثالوث في مرحلة قديمة أى قبل أن يصبح ود كبير الآلهة وقبل أن يطلقوا عليه اسم « أب » وقبل أن يسموا أنفسهم « أبناء ود »<sup>(٣)</sup>. فكل ذلك جاء في مرحلة متأخرة بعد أن دخلت عبادة الكواكب إلى جزيرة العرب، وبعد أن شرع المعينيون يربطون آلهتهم الأرضية بالأجرام السماوية وبعد أن صار ود يمثل الآلهة سن اله القمر. ودليلنا على ذلك أن عشر كان يعبد في الأصل لا بوصفه اله الزهرة بل بوصفه الها أرضياً، إله سقى النخل وجنى الثمار، إله الخصب والنتاج. وهذا ظاهر مما ورد في النقوش المعينية من القاب ونعوت كان يوصف بها فمن ذلك

(١) الرأى الذى عليه الجمهور هو أن النقوش التمودية مكتوبة بخط المسند الذى حمله المعينيون معهم لما هاجروا إلى الشمال واستقروا بديدان أى الملا وأسسوا دولة شمالية لكن جرمه Grimme يخالف جمهور العلماء ويقول إن الخط التمودى يحوى طرازاً قديماً من الحروف أقرب إلى خط طور سيناء القديم منه إلى المسند. وعلى هذا فلا بد أن يكون الخط التمودى هو الأصل الذى تحدر منه الخط المسند. ولكن العلماء لم يقبلوا هذه النظرية لعجز جرمه عن إقناعهم بوجود مثل ذلك الطراز التمودى القديم. وفى رأيهم أن الشبه الذى يلاحظ بين الخط التمودى وخط طور سيناء الأصلى إنما جاء عرضاً وبطريق المصادفة انظر See F. V. Winnett, A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions.

(٢) See, e. g. Hal. 255, and Eul. 22 (e. g. in Hommel's Chrestomathie) and Gl. 1150 in Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen, Wien II 1917, p. 54

Nielsen. p. 217.

(٣)

مثلا أن عثر كان يدعى « واهب الماء » و « جاني الثمار » أو « جامع الخصاد »<sup>(١)</sup> ومن ثم يقين لنا أن عثر هو من أقدم الآلهة التي عبدت في جزيرة العرب بوصفه اله السقى والماء والنخل والتمر والخصب والنتاج . وقد انتقلت عبادته من جزيرة العرب إلى جميع أنحاء العالم السامي كما سنبين ذلك فيما يلي .

أما فكرة ارتباط عثر بالزهرة وأنه يمثل ذلك الكوكب فربما كانت فكرة متأخرة نوعا ما جاءت تحت تأثير البابليين ، فقد كان جنوب جزيرة العرب بمثابة جسر تعبر عليه الحضارتان المصرية والبابلية منذ عصور ما قبل التاريخ ، وكان البابليون يعبدون إلهة تسمى أشدر «عشدر» وقد قرنوا عبادة هذه الإلهة بالزهرة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م<sup>(٢)</sup> ولعل المعينين قد أخذوا عبادة الزهرة فيما أخذوا عن البابليين ثم ربطوا عبادة هذا الكوكب باسم الإلهتهم عثر لتقارب الأسمين ، أو لعل عثر قد رحل في الأصل من جزيرة العرب مع الساميين القدماء إلى بابلونيا بوصفه اله الخصب والنتاج ثم عاد ثانيا إلى جنوب الجزيرة بعد أن تغيرت عبادته في بابلونيا إلى كوكب الزهرة تحت تأثير الصومريين ، ودليلنا على ذلك ما ذكره همل و سيس من أن عبادة الكواكب والأجرام السماوية لا بد أن وردت من بابليونيا إلى جنوب جزيرة العرب وأن ما ذكر من أسمائها وصفاتها في النقوش الجنوبية إنما هو مشتق من أصل بابلي صومري ، والنتيجة التي وصل إليها «سيس» هي أن عبادة الأجرام السماوية كانت عبادة دخيلة على العرب والساميين الغربيين وأنها لا بد أن كانت نوعا قديما من العبادة البابلية وأنها دخلت إلى جزيرة العرب عن طريق «أور» ثم إلى كنعان بعد ذلك بزمن طويل

Fell, ZDMG. 54, 1900, p. 233-238.

(١) قارن

Barton, Royal inscriptions of Sumer and Akkad 1929 p. 238(٢)

حيث أصبح يعل — إله الكنعانيين القديم — يمثل الشمس وأصبحت عشتروث «عشتر أو عشتر» تمثل القمر (١)

لكن نيلسن يجحد هذا الرأي بشدة في مؤلفه الأخير (٢) فقد راح يدلل بالشواهد العلمية الغزيرة على أن ديانة العرب القديمة هي أم الديانات السامية الأخرى وأنها كانت في الأصل ديانة طبيعية قائمة على عبادة الكواكب والاجرام السماوية ، وأن أقدم نالوث كوكبي عبده العرب هو القمر ( الإله سن أو ود ) والشمس ( الإلهة شمس ) والزهرة ( عشتر ) وهو يرى أن هذا النالوث الكوكبي تمثل الأب والأم والابن (٣) . فلما انتقلت هذه الآلهة الكوكبية من جزيرة العرب إلى جميع أنحاء العالم السامي تأثرت هناك بمؤثرات خارجية وعوامل أجنبية غيرت من صفاتها وطبيعتها ونعوتها ووظائفها ففي بابلونيا مثلاً اختلطت بالديانة العربية السامية بالعناصر الصومرية وما شا كلها من العناصر غير السامية وتسبب عن ذلك أن أصبح القمر والشمس والزهرة تمثل ذوات الهية تختلف عن تلك التي كانت تمثلها في الديانة العربية الخالصة التي تمثل الديانة السامية الأصلية فن ذلك مثالان أخذت الإلهة « شمس » تحتل مقام الصدارة في بابلونيا وأصبحت أكثر أهمية وأرفع شأنًا من القمر ( الإله سن أو ود ) وغدت تعتبر « إلهًا » لا « الإلهة » ويشار إليها بالتذكير لا بالتأنيث (٤)

أما عشتر أو الزهرة الذي كان يعتبر ابنا للقمر والشمس ( أى للإله ود والإلهة

Sayce, The Religions of Egypt and Babylonia, p. 482. (١)

Nielsen, Der Dreieinige Gott, II<sup>e</sup> 1942. (٢)

Ibid p. 8, 96 ff. (٣)

Ibid p. 47 ff. (٤)

شمس) في الثالوث العربي القديم فقد تغيرت كذلك صورته في بابلونيا تحت تأثير العناصر الدينية الأجنبية في تلك البلاد وصار يحتل المكانة التي كانت تشغلها «شمس» وأصبح يرمز إلى الأمومة ويشار إليه بالتأنيث أى أن طبيعة «عثر» قد تغير من التذكير إلى التأنيث في بابلونيا وأصبحت عثر أو عثرهى الالهة الأم الهة الخصب والنتاج . وأما القمر — الإله سن — فقد بقي مذكراً ولكنه فقد مكانته بوصفه إله الزرع والنبات .

وقد حدث مثل هذا التحول أيضاً في كنعان وفينيقية تحت تأثير البابليين فأصبحت الآلهة شمس تعبد هناك بوصفها إلهاً مذكراً لا آلهة مؤنثة وعثر بوصفه مؤنثاً لا مذكراً . وصارا يعبدان على أنهما إلهان يمثلان الخصب والزراعة لأنهما إلهان كوكبان .

ويبدو أن الذى ساعد على ذلك التغير من الطبيعة الكوكبية إلى الطبيعة الأرضية هو ما حدث في جزيرة العرب نفسها ، فتم وجدنا تلك الآلهة الكوكبية قد شرعت تفقد بالتدريج صفتها النجمية وعلاقتها بالسماء وأصبح الإله القمر (ود) هو إله الريح والمطر والإلهة شمس إلهة الأرض والخصوبه والإله عثر أو الزهرة هو إله الزرع والنبع ، وأصبح عثر هو عين الإله تموز وبعل وادونيس أى أن كل هذه نعوت لاله واحد هو عثر<sup>(١)</sup> . وصار عثر يمثل طبيعة ثنائية فهو إله النبع وماء المطر وما ينتج عنهما من نبات وزرع وهو كذلك إله الجفاف فى الصيف وسنزيد فى شرح ذلك بعد قليل .

ويرى نيلسن أن الآلهة الطبيعية المتصلة بالأرض وخصوصاً بتها عند الساميين الغربيين لم تكن آلهة منفصلة بل هى صفات قائمه بذات إله واحد هو الإله

العربي القديم المشمل في كوكب القمر والذي كان يدعى تارة « إلو » Ilu وتارة « ودا »<sup>(١)</sup> وأخرى « أبا » .

ومهما يكن من أمر ففي أقدم النقوش السبئية نجد ثلاثة آلهة رئيسية أيضا هي  
المنه - وعثر - وشمس<sup>(٢)</sup>

والمقاهة هو أكثرها ذبيحا وذكرا في تلك النقوش وكان بيته أكبر من بيوت  
الآلهة الأخرى . ولم يرد ذكره في كتاب الأصنام لابن الكلبي . ويرى نيلسون أن  
المقاه هو اسم للإله من الهة القمر عند البابليين الذي صار كذلك أكبر الآلهة في  
جزيرة العرب . وقد اكتشف هيكله حديثا في حضرموت<sup>(٣)</sup> .

ولا ريب في أن عبادة المقاهة هي أحدث من عبادة عثر . ويظن مورمان  
Mordtmann أن الآلهة الثلاثة عثر والمقاه وشمس تؤلف ثلوثا عند السبئيين  
يشبه الثلوث المنكبون من عثر وود ونكرخ عند المعبنيين<sup>(٤)</sup> .

وقد وجدنا اسم الآلهة عثر كذلك في النقوش القتبانية مقرونا باسم الآلهة  
عم Amm وشمس . ووجدنا اسم عثر يذكر أولا في بعض هذه النقوش<sup>(٥)</sup> على  
الرغم من أن الآلهة عم Amm صار فيما بعد أكبر الآلهة عند القتبانيين إذ كانوا  
يدعون أنفسهم « بنى عم » كما كان السبئيون يدعون أنفسهم « بنى المقاه » والمعبنيون  
« بنى ود » .

وكان « عم » يعبد في جزيرة العرب قبل أن كتبت النقوش القتبانية بقرون

ibid, p. 97 ff.

(١)

CIS. pts. 4, Tom I No 74.

(٢)

Caton-Thompson, The Moon Temple.

(٣)

Nielsen. p. 199.

(٤)

Nielsen. Neue Katabanische Inschriften.

(٥)

pp. 249, 260, 274, 281.

عديدة فقد حمل العموريون أو الأموريون Amorites عبادته معهم إلى بابلونيا وفلسطين في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد إذ المتفق عليه بين العلماء أن العموريين هم الذين أسسوا أسرة حمورابي أو عمورابي ببابلونيا في سنة ٢١٠٠ ق م (١) وقد كانت عثر معروفة كذلك لخمورابي (٢)

وقد ذاعت عبادة عثر في جميع أنحاء العالم السامي تحت أسماء مختلفة . فقد حمل الساميون «العرب» عبادته معهم إلى مصر في عصور ما قبل التاريخ أي في حدود الألف الخامس قبل الميلاد (نحو ٤٤٠٠ ق . م) وكان يعبد في مصر باسم «أسر» أو عسر أو عثر أي اسيريس Osiris . ومعظم علماء المصريات المحدثون مجمعون على أن اسيريس من أصل سامي . ثم عبد كإلهة باسم اسة أو عسة أو عثة وأصلها عثر وهي ايزيس Isis والتاء الأخيرة للتأنيث وقد سقطت الراء بعد ادغامها في التاء ومثل هذا كثير في اللغة المصرية . وكان كلاهما يعبد أحيانا بوصفه إله الخصب والماء (٣)

وقد حمل العقاديون أو الاكاديون Akkadians عبادة عثر إلى بابلونيا في العصور القديمة . وكان يعبد هناك تحت اسم Ashdar و Ashdar عثر أو عثدر وهي إلهة لا إله . وقد ورد ذكرها في اسمي ملكين من ملوك كيش القدماء وهما Ashdar Muti (٤) أشدر موتي و Enbi Ashdar (٥) انبي أشدر ثم

(١) هذا تبعا للتاريخ الطويل أما سدني سمث فيرى أنها قامت بعد ذلك بنحو قرنين انظر كتابه Alalakh, 1940 .

(٢) تارن King's Letters and Inscriptions of Hammurabi, No. 66 .  
(٣) Breasted, The Development of Religious Thoughts in Ancient Egypt.

Barton, Royal Inscriptions, p. 352, 353. (٤)

ibid, p. 6, 7. (٥)

حرف اسمها في بابلونيا الى Ishtar وقد شاع هذا الاسم إلى آخر أيام البابليين والأشوريين . وقد عُدت كذلك كآله للجنى والحصاد في زمن جوديا Gudea ملك سومرأى في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد . وكانت تدعى عند الفينيقيين باسم Ashtart عشرة وعنه أخذها الأيغريق وسموها Astarte أما العبرانيون فقد حرفوا الاسم إلى Ashtoreth عشترث . وقد ورد الاسم في سفر الملوك الثاني في الاصحاح الثالث والعشرين ( آية ١٣ ) وفي مؤاب ( البلقاء ) اندمجت عبادتها في عبادة شمش <sup>(١)</sup> Chemosh وقد وردت في حجر مؤاب باسم Ashtar عشتر . أما في كنعان فقد وجدناها تعرف باسمين Ashtaroth عشتروث و Asherah وعشيرة <sup>(٢)</sup> . وقد ورد الاسمان في ألواح تل العمارنة واستعمل نفس الرمز البابلي في كتابة الاسمين إذ كان يعبدها في ذلك الوقت قوم يدعون بنى عبد العشيرة <sup>(٣)</sup> . وكانت عشتروث عند الكنعانيين إلهة الكوكب الليلي « لزهرة » ويقول البريت Albright أنها لابنة أن كانت في الاصل على نفس الآلهة عشتر Ashtar إله كوكب الصباح المعروف لدينا في نقوش مؤاب « البلقاء » واوكرت Ugarit أى رأس شمرا

أما عشيرة فكانت عند الكنعانيين إلهة الماء أو البحر وقد ورد ذكرها في ألواح راس شمرا Ugarit وهي تدعى هناك « عشيرة يمي » Athiratu-Yammi

Cook, North Semitic inscriptions, p. I. ff. (١)

Albright, Archeology and the Religion of Israel, 1912, p. (٢)  
74 ff.

JBL. Vol. X, p. 82.

(٣) قارن

وهي مشتقة من Athar «عثر» أى مشى فيكون معنى « عشيرة يمي » التي تمشى على الماء أو خواصة الماء ونلاحظ هنا أن الجزء الأول من الاسم الذي ورد فى ألواح رأس شعرا يشبه الاسم الذى ورد فى بعض النقوش القتبانية كما نوهنا بذلك آنفا فكلأهما يستعمل الثاء لا الشين والثناء هى الاصل كما سنبين ذلك فيما يلى وعلى هذا فلفظ عشيرة قد يكون لغة فى عشيرة وقد يكون اسما دخيلا على جزيرة العرب دخل إليها مع عبادة هذه الإلهة ويبدو أن البابليين كانوا يعتبرونها كذلك دخيله عليهم وأنها وردتهم من الساميين القاطنين إلى الغرب منهم<sup>(١)</sup> ونحن نعلم أن العرب عبدوا عشيرة وسموا بها فقالوا عبد العشيرة .

وقد عبدت عشيرة أيضاً فى «صور» فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وكانت ابرالالهة وكانوا يطلقون عليها اسم Qudshu قدشواى قدوسة لو المقدسة . فى قصة « كرت » المنقوشة على ألواح رأس شعرا نجد العبارة الآتية Liquidshi atirtu Surrima « لقدشى عشيرة صور بما » أى لقد سبه عشيرة الصوريين . وكانت تدعى فى هذه الألواح أيضاً Qāniyatu elima (قانية اليم) أى خالقة الآلهة . وكانت عبادة عثر أو عشيرة متصلة كل الاتصال بالماء والخصب والنتاج والنسل عند جميع الشعوب السامية وهى كذلك تمثل الأمومة عندهم<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكرنا آنفاً أن عثر كان إله سقى النخل والخصب والنتاج فى ديانة العرب القديمة . ويبدو أن عثر وعشيرة هما اسمان مترادفان يدلان على شىء واحد

Lods, israel p. 134.

(١)

Albright, Archaeology and the Religion of Israel, p. 75.

(٢)

كما يظهر ذلك من ألواح تل العمارنة . وقد ورد كذلك اسم عشيرة في التوراة مرادفا لاسم عثر<sup>(١)</sup> . وحرف اسم عثر في الحبشة إلى Astar «عستر» ومن هنا كان لفظ عستر معناه «الاله» في النقوش الحبشية<sup>(٢)</sup> .

وكان عثر يعبد في صيغة المذكر في جزيرة العرب وفي بابلونيا في بادىء الأمر ولكنه صار يعبد بعد ذلك في صورة إلهة لا إله ولو أن اللفظ ظل مذكراً لا ينتهى بعلامة التأنيث إلا في كنعان . وقد انتشرت عبادتها بهذا الوصف المؤنث في جميع أنحاء العالم السامى حتى وجدنا صدى ذلك في نقش من نقوش جزيرة العرب نفسها نشر بالجملة الآسيوية<sup>(٣)</sup> ونقله بارتون في كتابه «أصول الساميين والحاميين» وقد ربط الكنعانيون عبادة عثر وعشيرة وعناة بعبادة الإله بعل وصاروا يعدونه زوجاً لتلك الإلهات الثلاث . وكان كذلك إله الماء والخصب عندهم .

وقد اختلف العلماء في أصل اشتقاق عثر أو عثر أو عشيره . فمنهم من يرى أن الأصل ليس سامياً وأنه مشتق من كلمة صومرية معناها «اجتمع» أو مكان الاجتماع للعبادة وأن عبادتها دخيلة على الساميين .

والصحيح أن الأصل سامى يدل على وجود العين في اسم هذه الإلهة في جميع اللغات السامية إلا في البابلية والآشورية . ومن العلماء من يشتق الاسم من «أشور» أو من «حشر» أو من عثر بمعنى كثر أو من الأصل الأرامى عثر . والراجح عندي أنه مشتق من عثر أى من الأصل العربى المشتق منه كلمة عاثر ويعنى القناة التى تحفر لى النخل كبعل . ومن ثم كانت عثرعى لإلعة الخصب

(١) سفر القضاة اصحاح ٣ آية ٧

Louis Israël p. 133.

(٢)

Journal Asiatic, 8 ser., Tom II, p. 256 ff.

(٣)

والنتاج ممثلة في النخل والماء . وقد وردت بهذا المعنى في النقوش الميعينية <sup>(١)</sup> .  
وكانت عشتار تدعى في البابلية « منتجة الخضر والنبات » <sup>(٢)</sup> .

وكانت عند الكنعانيين تمثل الماء والخصب . فلما قرن الكنعانيون عبادتها  
بعبادة الاله بعل أخذ بعل وظيفتها وصار هو إله الخصب وماء السقي بأنواعه كماء  
المطر والآبار والعيون . وقد وجدنا صدى ذلك عند العبرانيين . فكانت الأرض  
التي تسقى بماء الطبيعة كماء المزن والآبار تدعى في المشنة والتلمود باسم « بيت  
بعل » أو « حقل بيت بعل » <sup>(٣)</sup> .

وبعل هنا هو « بعل شماميم » أى بعل السماء . ومن ثم كان له نصيب في نتاج  
الأرض التي يسقيها بمائه . وقد فرق العبرانيون في خراجهم بين زرع هذه الأرض  
وبين ما يجلب إليه الماء بالرى الصناعى . وقد نحدت هذه الفكرة إلى قدماء العرب  
وعلى ضوءها نستطيع أن نفسر بعض مظاهر نظم الخراج التي وجدت طريقها إلى  
الاسلام . فقد ورد في كتب الفقه الاسلامى أن ما يجي عليه العشر هو كل ما  
سقى بماء السماء والآبار والبعل . وورد في البخارى أن كل ما سقى بماء السماء  
والآبار فهو عشرى <sup>(٤)</sup> وبمقارنة اللفظين ترى العلاقة واضحة بين بعل وعثر (أو عثتر)  
وهي علاقة قديمة جدا ترجع إلى عصر الكنعانيين كما ذكرنا آنفاً .

وقد قرنت عشتار بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قدم الزمان حتى  
أنهم كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من خشب كما ورد مراراً في

CIS Pl IV, Vol. I Nos. 5, 104 and 105 (١)

Hebraica, Vol x. p. 15, (٢)

Smith, Religion of the Semites, p. 97. (٣)

(٤) البخارى جزء ٢ ص ٦٤

التوراة<sup>(١)</sup> وكانت تمثل عادة بمخنع شجرة فصلت عنه الأغصان .

وكان الساميون يعتقدون ان هذه الالهة وماشا كلها تسكن جذوع الأشجار وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام<sup>(٢)</sup> . وقد ظل هذا الاعتقاد في جزيرة العرب إلى ظهور الاسلام . فقد كانت عنتر تعرف في شمال الجزيرة بأسماء أخرى منها اللات والعزى . وكانت العزى ممثلة في شجرة بيطن نخلة . وكان العرب يعتقدون أنها شيطانة تأتي ثلاث سمرات . فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : إيت بطن نخلة فانك تحد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها . فلما جاء إليه قال : رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثانية فأتاها فعضدها . ثم أتى النبي فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثالثة فأتاها فاذا بحبشية نافثة شعرها واضعة يدها على عاتقها ، تصرف بأنيابها فضربها ففلق رأسها فاذا هي حمه ثم عضد الشجرة ، وقتل سادتها<sup>(٣)</sup> .

تلك هي قصة ابن الكلبي في العزى وهي تبين لنا الاعتقاد الذي كان لا يزال شائعاً عند العرب إلى ظهور الاسلام . وهو اعتقاد كان متفشياً كذلك عند سائر الساميين .

وكان الاسرائيليون يعتقدون أن الشجر ينطق ويتكلم ويفعل ما يفعل الانسان<sup>(٤)</sup> . وكثيراً ما حدث في أوقات الشدة والأزمات أن انصرف الاسرائيليون

(١) Albright, Archaeology and the Religion of Israel 1943, p.75

(٢) Smith Religion of the Semites, p. 132, T35.

(٣) ابن الكلبي كتاب الأسماء ص ٢٥ و ٢٦ .

(٤) سفر تفسر صحاح ٤ آية ٨

عن عبادة إلههم « يهوه » وعادوا إلى عبادة عشيرة « أى عشر » فى صورة من الأشجار والأعواد . وقد نعى عليهم ذلك ارميا النبي ونعى عليهم قولهم « للعود أنت أبى وللحجر أنت ولدتى » (١) . وقد وجد ربرتن سميت وأشياع الطوطمية فى عبادة الأشجار عند الساميين . شاهداً آخر على طوطميتهم . وذهب بعضهم إلى حد أن ارجع كل شعيرة دينية إلى أصل طوطمى (٢) كتقديم القرابين والتضحية والزرع والحرت والسقى وعبادة الحيوان وتقديس الأشجار . وهذا إغراق فى الخدس والتخمين .

والحق أن البحوث الحديثة قد أظهرت فساد رأى القائلين بعمومية الطوطمية وأن جميع الشعوب قد مرت بمرحلة الطوطمية فى وقت من أوقات تطورها الاجتماعى . وقد ثبت الآن أن نظام الطوطمية لا يسير على وتيرة واحدة عند الأمم التى لاتزال تمارس هذا النظام . فالطوطمية الاسترالية تختلف اختلافا عظيما عن طوطمية قبائل الهنود الحمر بشمال أمريكا مثلا

أما عن الطوطمية عند العرب والساميين فالظواهر التى اعتمد عليها ربرتن سميت فى اثبات ذلك هى أنهم تسموا بأسماء الحيوان الذى اتخذوه طوطما وأنهم عبدوا الحيوان ، وكانوا يعتقدون أنهم يمتون بصلة القربنى إلى تلك الآلهة . . . أما عن النقطة الأولى فقد أثبتنا فساد هذا الرأى وبيننا أسباب تسميتهم بأسماء الحيوان وأنهم إنما كانوا يفعلون ذلك لصفات خاصة كانوا يلحظونها فيه لا لأنهم كانوا يعتقدون أنهم متحدرون حقيقة من الحيوان وأن دمه يجرى فى عروقهم .

(١) سفر ارميا اصحاح ٢ آية ٢٧

F. B. Jevons, Introduction to the History of Religion, (٢)  
(1904) pp. 206-225

وأما عن النقطة الثانية وهي عبادة الحيوان عند العرب قديماً فلا برهان على ذلك مطلقاً وليس ثمت دليل ولا شبه دليل واقعى يثبت أن قدماء العرب قد عبدوا الحيوان فعلاً كما فعل قدماء المصريين وكما تفعل الشعوب الطوطمية الأخرى . وإنما كل ما هنالك أنهم عبدوا أصناماً على هيئة الحيوان وهي يغوث ويعوق ونسر وشتان ما بين العبادتين — عبادة الحيوان وعبادة الأصنام — فأصحاب الطوطم لا يعبدون أصناماً وإنما يعبدون حيوانات يقسبونها ويعظمونها وينجبون أذائها ويسعون إلى رضاها، ويمارسون نوعاً من السحر والرقى لحفظ حياة الطوطم وبقائه سالماً .

ثم إن العرب ربما أقاموا هذه الأصنام الثلاثة على صورة الحيوان لصفات كانوا يلحظونها فيها تشبه صفات الآلهة الأصلية . فقد ثبت أن بعض هذه الأسماء ومنها يغوث إنما هي نعوت وكنى تخفى وراءها اسم الإله الحقيقي <sup>(١)</sup> . ثم إن قدماء العرب بشهادة القرآن إنما كانوا يعبدون هذه الأصنام ليتقربوا بها إلى « الله » زلفى وإنما أرادوا بلفظ « الله » هنا إلههم الأكبر وكان يدعى « إل » أو « ئل » كما فى كلمة إسرائيل . وقد ورد اسمه مقروناً باسم عشتار فى نقوش جزيرة العرب <sup>(٢)</sup> . ويرى بعض العلماء أن الإله المسمى « المقاه » مكون فى الحقيقة من جزأين « إل » بمعنى إله و « مقاه » بمعنى الحافظ أو الحارس <sup>(٣)</sup> . وعلى هذا يكون « المقاه » معناه « إل - الحافظ » أى الإله الحافظ . وقد ورد الاسم بالهاء أيضاً مذكراً ومؤنثاً . فقد وجدنا فى النقوش اللحيانية وفى نقوش جنوب

Wellhausen, Reste. etc. p. 22.

(١)

cf. Halevy, Nos. 144, 150.

(٢)

Nielsen, Der Sabaeen Gott Il-Makah.

(٣)

الجزيرة لفظ إلاه (اله) والاهت للدلالة على أكبر الآلهة عندهم<sup>(١)</sup>.  
ولفظ «إل» أو «ئيل» هو أكثر الكلمات ذيوعاً في اللغات السامية  
للدلالة على ذات المعبود. أما لفظ «إله» فخاص باللغة الآرامية والعربية  
والكنعانية الشرقية كما كشفت عن ذلك ألواح رأس شمرا. ففي تلك الألواح التي  
يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورد الاسم بصيغة الجمع «ألوهيم»  
أو «إلاهيم» و«الوهوت» أو «الاهات»<sup>(٢)</sup>. ولذیوع هذا الاسم بين  
الساميين ذهب كثير من العلماء إلى أنه يدل على ديانة قديمة قوامها التوحيد<sup>(٣)</sup>  
بينما ذهب بعضهم إلى أن العرب والساميين إنما قصدوا بهذا الاسم الله القبيصة  
الأكبر. والراجح أن الاستعمال اللغوي هو الذي أدى بمرور الزمن إلى إدماج  
فكرة الآلهة في إله واحد وأصبح لفظ الآلهة «بلام التعريف» أو «الله» يقصد  
منه الآلهة الواحد. وقد حدث مثل ذلك في العربية فلفظ «هألوهيم» بصيغة  
الجمع معناه «الله» الواحد الأحد.  
ومهما يكن من أمر فيرجح العلماء أن استعمال الاسم بهذا الوضع يدل على  
ميل عند قدماء العرب نحو «التوحيد» وخاصة وأنه كان يوصف في نقوش جزيرة  
العرب بلفظ «رحمن»<sup>(٤)</sup> ويرى مرجوليث في هذا الوصف أثر العرب  
اليهودية والمسيحية وأنه يدل على مرحلة متوسطة نحو الإسلام<sup>(٥)</sup>.  
ونحن نضيف إلى كل هذا أن عبادة الأصنام ذاتها كانت دخيلة على العرب

Neilsen, Handbuch, p. 190. 192. 217. (١)

cf. Montgomery, The Ras Shamra Mythological Texts, 1935 (٢)

Hammel, ancient Hebrew Tradition, p. 76. (٣)

Nielsen, p. 196. (٤)

Margoliouth, Relations Between the Arabs and the Israelites (٥)  
p. 67. 68. and 21 ff.

وقد وردت إليهم في العصور التاريخية على يد رجل يدعى عمر بن لحي وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي. ويقول ابن الكلبي<sup>(١)</sup> أنه كان كاهناً وأنه جلب هذه الأصنام من البلقاء ومن شط جدة وقدم بها مكة فنصبها حول الكعبة. وحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها فأجابوه.

ومن كل ما قدمنا يتضح لك جلياً ما يأتي :

أولاً - أن العرب لم يمارسوا عبادة الحيوان مطلقاً ولم نجد أثراً لهذه العبادة بين الشعوب السامية الأخرى .

ثانياً - أن عبادة يعوث ويعوق ونسرهى عبادة دخيلة على العرب حتى ولو كانت ترمز إلى عبادة الحيوان فعلاً كما يتعمل بذلك أصحاب الطوطمية .

فقد أظهر وهوزن<sup>(٢)</sup> أن يعقوت نعت يحفى وراءه اسم الهة قديم جداً قديكون من أصل حامى . وأما يعوق فقد كان صنماً على هيئة الحصان . ولما كان الحصان غير معروف لدى قدماء الساميين ولا الحاميين فالراجح أن عبادة الحصان - على فرض وجودها - قد دخلت إلى جزيرة العرب تحت تأثير الفرس وأنها قد جاءتهم عن طريق البحرين كما يؤخذ ذلك من أقوال البلاذري وياقوت .

وكذلك نسر فقد ورد ذكره في النقوش القتبانية والسبئية ، والراجح أن عبادته قد دخلت إلى جزيرة العرب من مصر ، ويرى وهوزن أن عبادته كانت متصلة بالكواكب وأنها تشير إلى مجموعة الكواكب القريبة من المجرة

ثالثاً - أن أقدم آلهة العرب كانت آلهة أرضية متصلة بالتربة وبالسقى

(١) ابن الكلبي كتاب الأصنام ص ٨٠ - ٥٤ .

(٢) Wellhausen, op. cit. p. 22; Barton. Semitic Origins p. 216

والخشب والنتاج وهذا أمر طبيعي لسكان البيد والصحراء . وقد وجدنا صداه في تعظيم الأشجار والعيون والآبار .

وقد نزل هذا الاعتقاد شائعا بين العرب إلى عصر متأخر فقد كان الرجل منهم لا يظن من مكة إلا احتمال معه حجراً من حجارة الحرم . ويعلم ابن الكلبي لذلك بأنهم إنما كانوا يفعلون هذا تعظيماً للحرم وصبابة بمكة . ونحن لانوافق ابن الكلبي على هذا التعليل بل نرى في ذلك بقية من ديانة الساميين الأولى ونرى أن قدماء العرب إنما كانوا يحتفلون بالأحجار في أسفارهم لاعتقادهم أنها جزء من تربة تلك النواحي الخصبه التي يسكن الاله جذوع أشجارها ويروى بمائة مدرها وأحجارها . وبما أن الحجر هو جزء من تلك التربة ففيه شيء من روح الاله ولهذا كان العربي القديم يحتمله معه في أسفاره تيمنا به وتفاؤلا حتى كان إذا وقع على بر أو شجرة روى بمائها أو تغذى بشرها ثم رفع عقيرته بالدعاء والتهليل بل كان حينما حل يضع الحجر ويطوف به دلالة على الشكر والحمد والتعظيم والتوقير . وقد وجدنا آثار هذه العبادة الأولى عند قدماء العبرانيين . فهم بشهادة التوراة كانوا يعتقدون أن آلهم « يهوه » يسكن الغيل والأشجار<sup>(١)</sup> وكانوا كثيراً ما ينقلبون إلى عبادة الأحجار . كل ذلك دون وجود أثر للطوطمية بينهم .

بقي علينا أن تناقش نقطة أخرى احتج بها صمت في اثبات الطوطمية عند العرب وقدماء الساميين قياساً على ما هو حادث عند الشعوب البدائية التي لا تزال تمارس الطوطمية إلى الآن . فهو يقول إن السبب في تحريم الساميين أكل لحوم بعض الحيوانات يرجع إلى أنهم كانوا يعتقدون أنهم يتنون بصله النسب إلى تلك

(١) سفر اثنى عشر اصحاح ٣٣ آية ١٦

الحيوانات لأنها هي طوطم القبيلة . وهذا زعم لامبرر له مطلقاً ولا تؤيده الشواهد العلمية . إذ لو صح ذلك لكان العرب قد حرموا لحم الثور والبكر ( الجمل ) والحمامة والعنز والفهد ( الجدى الحجازى ) والضبع وهو ما لم يحدث مطلقاً مع أن عشائرهم تسمت بهذه الأسماء . ولكان العبرانيون قد حرموا أكل الشاة والكبش والعجل للسبب ذاته . ولكنهم لم يفعلوا ذلك ولم ترد أسماءها ضمن الحيوانات التي حرمت التوراة لحومها .

أما عن المظاهر الأخرى التي احتج بها سمث في اثبات نظريته وهي التضحية الجماعية والوشم والزواج الخارجى — فيجب الآن اغفال أمرها لأن البحوث الحديثة قد أظهرت أنها ليست من الخواص القاصرة على الطوطمية . والنتيجة التي وصلنا إليها بعد كثير من البحث والاستقصاء في طوطمية الساميين تتلخص فيما يأتى : —

أولاً — وجدت بين الساميين بعض عناصر اجتماعية تشبه المظاهر الشائعة بين القبائل الطوطمية كالترسمية بأسماء الحيوان والاعتقاد في وجود علاقة بين الآلهة وقبيلته وأن لبعض أنواع الحيوان صفات خاصة خارقة للعادة . ثانياً — من الممكن أن تكون هذه العناصر قد ظهرت أحياناً في جزيرة العرب بشكل يحمل على الظن بوجود علاقة بينها وبين المظاهر الموجودة عند بعض القبائل الطوطمية .

ثالثاً — أن عبادة الأصنام وما ترمز اليه من حيوانات هي عبادة دخيلة على جزيرة العرب .

رابعاً — ليس ثمة دليل واقعى يدل على أن النظام الاجتماعى عند الساميين كان ذا صبغة طوطمية .

خامسا — لوكان الساميون قد عرفوا الطوطمية لكانوا قد حملوها معهم إلى مصر في عصور ما قبل التاريخ وكانوا قد مارسوها في المقاطعات التي استقروا بها هنالك مع من مارسها من القبائل الحامية .

سادسا — كانت العشيرة السامية منذ أقدم العصور عشيرة إقليمية لا أثر فيها لوجود الطوطمية .

ومن كل هذا يتضح لنا أن قول ريرتسن سمث ومدرسته بطوطمية العرب والساميين هو قول مردود بالكلية .

ولنتقل الآن إلى النظام السياسي للعشيرة عند الساميين فنقول